آفاق نجفية

مجلة فصلية مصورة تعنى بالدراسات والبحوث التراثية والمعاصرة

٢

تصدر عن شؤون العتبة العلوية المشرفة

١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

محمد حسين آل كاشف الغطاء

(١٢٩٥ ـ ١٣٧٣هـ)

الدكتور منير بكر التكريتي*

سيرته:

هو الشيخ محمد حسين بن العلامة الشيخ علي بن محمد الرضا النجفي، من قبيلة بني مالك المعروفة بـ «آل علي» التي تعج مضاربها في ناحية الشامية في العراق. وبنو مالك ينتهي نسبهم الى مالك بن الحارث الاشتر النخعي[١] من خواص اصحاب أمير المؤمنين علي «رضي الله عنه» الذي كان المثل الصالح في خلقه واتجاهاته حيث يقول الامام في وصفه: «لقد كان لي مثل ما كنت لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم».[٢]

ولد مترجمنا في النجف الاشرف عام ١٢٩٥هـ في بيت علم وأدب. وقد ذكر هو مولده في كتابه «جنة المأوى» فقال: «ولادتي في عام ١٢٩٥ »[٣] كما ارخ الشاعر المعروف موسى الطالقاني ولادته بقوله:

سرور به خصّ أهل الغري ... فعم المغارب والمشرقينْ

بمولد من فيه تم الهنا ... وقرّتْ برؤيته كل عين

وقد بُشر الشرعُ مُذ أرخوا ... (ستثنى وسايده للحسين)[٤]

---

* كاتب، باحث، من أساتذة جامعة بغداد.

عن: مجلة الرابطة النجفية س٢ ع٢ لسنة ١٩٧٥م ، ص ٤٥-٦٦ .

(١) راجع. محمد حسين كاشف الغطاء، جنة المأوى، جمع وتعليق محمد علي القاضي الطباطبائي، مطبعة تبريز ايران، ١٣٨٠هـ.

(٢) راجع طبقات اعلام الشيعة٢:٢٤٨ ــ ٢٤٩.

(٣) جنة المأوى:١٣.

(٤) علي الخاقاني، شعراء الغري، ٨: ٩٩ ــ ١٠٠ المطبعة الحيدرية في النجف، ١٩٥٥.

أما والده فكان يسكن في قرية من قرى محافظة الحلة اسمها «جناجى» هاجر منها الأب الى النجف الاشرف طلباً للعلم واستزادة من المعرفة حتى عُد فيما بعد مرجعاً دينياً، له مكانته، يرجع اليه في أمهات المسائل الدينية والروحية.

شب المولود «محمد حسين» منذ نعومة أظفاره على المطالعة والدرس برعاية أب عرف العلم وأهله، والأدب وفنونه، فأخذ الابن بدراسة مقدمات العلوم من نحو، وصرف، ومنطق، وأصول، وما اليها، وانصرف بشغف الى العكوف على قراءة علوم الهيأة والكلام[1]، ثم لم يكتف بكل هذا بل توغل في دراسة الفقه والاصول على اساتذة عصره كالإمام الخراساني، والفقيه ملا رضا الهمداني، والسيد محمد الأصفهاني، والشيخ أحمد الشيرازي، وغيرهم من مشاهير العلماء المتخصصين.

وما إن أتم دراسة الآداب والعلوم العربية إضافة الى العلوم الدينية والإحاطة بجميعها حتى استقامت له ثروة ضخمة في شتى العلوم مما هيأه للتدريس في المساجد آونة وفي بيته آونة أخرى. وكان يتحلق في درسه فضلاء القوم، وطلاب المعرفة. وقد عرف عنه ـ رحمه الله ـ أنه كان فقيهاً، قوي الحجة، مجتهداً، حراً في آرائه المتنزعة من ذوقه العربي السليم المبني على فهم اصول الدين، والقائم على التثبت من نصوص الأخبار والروايات التي نقلها الأثبات، تلك التي يزخر با المذهب الجعفري الأصيل. فكان بحق مثار إعجاب الكتاب والادباء والفقهاء في البلاد العربية خاصة والعالم الإسلامي عامة.

ولعل رسالته المعنونة بـ«سؤال وجواب» تعطينا الصورة الواضحة للامح آرائه الحرة وأقواله المتزنة حيث تعد بحق جريئة الى أبعد حدود (الجرأة) وشجاعته متناهية في إعطاء الأحكام البناءة.

وفوق هذا وذاك، كان يدعو صراحة وفي كل المناسبات الى فتح باب الاجتهاد في أمور الدين لإيمانه أن الإسلام انطلاق لا جمود، وهو صالح للتطبيق في كل زمان ومكان فهناك أسس ثابتة لا تقبل التغيير قطعاً، والى جانبها أمور قابلة للاجتهاد لتطويرها، من ذلك ما اهتم به وعني بأمره من شؤون الزواج، فقد أصدر فتواه. غير هياب ولا وجل، بصحة الزواج بالعقد الدائم بالكتابية، بينما كان غيره من علماء الشيعة[2] وفقهائها لا يقر هذا إلا عن طريق العقد المنقطع لا الدائم.

---

(١) علي الخاقاني، شعراء الغري،٨: ١٠٠.

(٢ - ٧) راجع وحي الرافدين، للمترجم له ١، ٤٦، ٥٠.

ومن اجتهاداته كذلك: إباحته للغناء الرفيع، لا الرخيص، المجرد من الهوس والميوعة المخجلة، باعتباره فناً له قيمته وتأثيراته في تربية النفس والسمو بها؛ لأن دور الفنان المغني دور مهم في أمته، قال: الغناء حوار رافقته آلاب الطرب الموسيقية للسمو والرفعة، وما لم يستخف الطرب السامع الى حد يخرج معه عن الكمال فهو إذ ذاك غير مشروع [١] والمتمعن في كتابه «سؤال وجواب» يجده قد أدخل على الفقه كثيراً من التطور وأوجد كثيراً من القواعد الهامة حيث زخر هذا الكتاب بالآراء النيرة المستندة إلى تفهم النصوص وتعليلها.

لذا أعجب به تلاميذه ومحبو علمه وأدبه؛ لأن مذهب الشيخ كان مذهب الرجل المصلح والمفكر الذي اعطى التفكير النظري حقه، ولكنه أخذ منه العقيدة الإسلامية خالصة من شوائب الخرافة وعقبات الجمود التي تصدّها عن التقدم وتقعد بها عن مسايرة الزمن والتأهب للحياة. فقد وجد قراء علمه وعشاق أدبه صورة رائعة لإمام هو أولى أئمة عصره بأن يأتم به المقتدي فيما اضطلع به من صدق العقيدة، وأمانة الفكر، وشدة الإخلاص في كل ما يتصدره الإنسان، القمين باسم الإنسان، من نية خالصة، ونزاهة عمل في السر والعلن. وقد واجه صاحبنا البدع المستوردة شاهراً قلمه للتنديد بتلك العادات التي تقام في العاشر من المحرم في كل عام تخليداً لذكرى مقتل الحسين عليه السلام في الطف، إذ جاهر الناس، وهو الصريح، بمغبة تلك العادات المستهجنة، والتقاليد البالية؛ لأن نفسه ضاقت بكل ما يجري من الأعمال اللاإنسانية المتلبسة بلباس الدين التي فيها من الشذوذ الشيء الكثير، من ذلك قوله: «إن في صدري لعلماً جماً أخشى أن أبوح به من الشياطين الذي يوجهون العوام وفق مقاصدهم»[٢] كما يرى ـ رحمه الله ـ وجوب رعاية هذا الوطن والمحافظة على الفة أبنائه، والقضاء على التفرقة الطائفية التي انتهجها كل من استعمر العراق، فقد حارب دعاة البدع ورهينة الدين الذين رسخوا تلك الضلالات في عقول الساذج من الناس من شق الجيوب، ولطم الخدود، والإساءة الى الجسد بالسلاسل، غير أن دعوته هذه لاقت صلابة من أعدائه وخصومه. فعمدوا الى استعداء البسطاء عليه، والطعن بدعوته وسلامة مقصده، ونيل غايته أقول: حاربوه حرباً استمرت زمناً طويلاً فكانوا يقتنصون من خطبه ومقالاته فقرات يخرّجونها تخريجات وفق أهوائهم ليدلّلوا على سوء قصد، من ذلك خطبته التي ألقاها في مسجد الكوفة تحت عنوان «الاتحاد والاقتصاد» فقد جاء في بعض فقراتها: «دينارك كدمك فأجر دمك في عروقك...» ليسمموا أفكار السذج، ويهيجوا

(١) شعراء الغري ١١٧/٨.

(٢) شعراء الغري١١٧/٨.

العوام. ولكنه ظل دائباً في جهاده ولم يأبه لتقولاتهم رغم أنهم أتعبوه، يدل على ذلك قوله: «إن ما أشاهده ليؤكده لي ما يقصه التأريخ من شذوذ وظلم من مناصرة البسطاء، وخذلان العلماء، ولست بأول قارورة».[1]

كل تلك الافكار التي تبناها رجال الدين الجامدون، ودهاقنة السياسة المتحرفون، وقف الشيخ كاشف الغطاء ضدها وقفة رجل صلب لا يلين ولا ينثني لتقولات الخصوم والأعداء، لإيمانه أنه يصارع باطلاً ويروم حقاً.

ولم يشغله الفقه والأدب والتأليف عن الدفاع عن الوطن إذ انتظم في صفوف المجاهدين العراقيين في جبهة الكوت عام ١٩١٦ م مع إخوانه في الدين العثمانيين ضد الإنكليز، لكن الحملة أخفقت، فقفل راجعاً الى مدينته النجف عاكفاً على التأليف والتحقيق، وما إن أطل عام ١٩٢١ ـ وهو العام الذي توج فيه الملك فيصل ـ حتى طلع الشيخ على الشعب العراقي بخطبته ونصائحه، ظناً منه أن فيصلا سيحقق رغبة، ويؤمن حرية ويخرج مستعمراً، تلك الآمال التي رنا اليها العراقيون، وطال انتظارهم لها.

لكن آمال الشيخ خابت لائتمار الملك وحاشيته بأوامر أسياده الانكليز، فكان حصيلة الحكم الملكي غرم العراقيين، وغنم الانكليز. ومما زاد في ألمه أنه وجد الملك يسعى لإثخان الجراح وتعميق الخلاف بين السنة والشيعة فلم يستكن لهذا أو يلن بل جابه هذه الآراء والأعمال بخطب تنبه القوم الى أخطارها، داعياً الى تجنب كل ما من شأنه إثارة الخواطر، فكانت هذه الخطب مثار إعجاب الناس، فتناقلتها المحافل وأشادت بها المجالس.

ولم يفته الاشتراك في الحركة القومية مع بعض أحرار سورية كالشيخ أحمد طبارة، والشيخ أحمد عارف الزين، صاحب مجلة العرفان، وعبد الغني العريسي، بما نشر من مقالات وطنية وقصائد أججت الحس القومي ثم قصد مصر انتجاعاً للعلم متصلا أعلامها مناقشاً علماءها، وخاصة علماء الأزهر ومشايخه فآلمته نوادي التبشير المنتشرة هناك فأودع آلامه وآراءه هذه كتابه «التوضيح» وبعد سفرة تقرب من سنتين قفل راجعاً الى النجف منقطعاً الى التدريس في مدرسته، وفي الصحن الشريف، يؤمهما طلاب المعرفة.

وما إن أطل العشرون من تموز عام ١٩٣٣ حتى يمم وجهه نحو إيران متجولاً في القرى والمدن داعياً المسلمين الى التمسك بالدين الإسلامي الحنيف.

---

(١) الخطب الأربع.

وقصد كراجي عام ١٩٥٢ لحضور مؤتمر علماء المسلمين، فلقي حفاوة من لدن حكومة باكستان، وأكرم بما يناسب علمه وأدبه، واستلب إعجاب المسلمين هناك وسحر عقولهم بما القى من خطب تدعو الى تكاتف المسلمين شرقاً وغرباً والرجوع الى صلب الدين وسنة رسوله.

أدبه:

ويعد المترجم له في الطليعة من أدباء النجف، وبذلك يضاف الى منزلته الدينية منزلة أدبية. وشعره يعد في الذروة، يزخر بالعواطف الإنسانية، والقيم الخلقية، والمواقف الوطنية. وقد ضمت جميع أشعاره بديوانه. ونقتطف هنا جزءاً من قصيدته في وصف قرية «كرند» مصوراً إحساساته بصور موحية، وقد هاجت ذكرياته عين ماء فوارة جلس قربها يقول:

يدهش اللب من «كرند» رجال ... مثل قلب البخيل جلمود صخرهْ
غير أن العيون منها جوارٍ ... وعيون البخيل لم تند قطره
كم دروس منها استفدتُ فكانت ... فكرة ثم عِبْرةً ثم عَبْره
يا جبال الأجيال والدهر يعدو ... للفنا، وهي في البنا مستقره
وقفتْ والزمان يمشي عليها ... راكضاً، وهي في العلا مشمخرة
يا بديع الجمال في كل قلب ... نورُ ذاك الجمال أودع جمره
قد سقتنا تلك الشمائل كأساً ... فسكرنا ولم نذق قط خمره
إن هذا الوجود بحرٌ ولكن ... أين من في الوجود يسبر قعره[1]

مقالاته السياسية والاجتماعية:

ومع كل ما تقدم فللشيخ محمد حسين كاشف الغطاء مقالات سياسية واجتماعية نشرها في الصحف واحتوتها مؤلفاته المطبوعة والمخطوطة، هي ثمرة علمه وأدبه، ودليل ممارسته الطويلة.

ففي السياسة: ادرك الشيخ بثاقب بصيرته، وهو المعني بالحركة القومية، ان الحركة الدينية تبقى محمدودة الأثر مالم يتفهم الجمهور العراقي الحقائق القومية وقواعدها واهدافها وذلك للعلاقة المتينة بين القومية والدين فعمد الى توعية الجماهير والتعريف بواقعها اذ شهر قلمه

(١) الديوان ص ٥٠، الغريب في الامر أنه فارق الحياة وأسلم أنفاسه الى بارئه بعد نظم هذه القصيدة بعشر ساعات.

وأوقف أدبه لمناهضة المستعمرين وركائزهم عن طريق كتاباته ومقالاته الصحفية الكثيرة، والمتمعن في كتابه «محاورة الإمام» مع السفيرين الانكليزي والامريكي بمناسبة زيارتهما لسماحته في النجف عام ١٩٥٤، يجد روحه الوطنية الصادقة، ومحاوراته الهادفة التي كشفت الاعيب السياسة الانكليزية وربيبتها الامريكية:

قال مخاطبا السفير البريطاني تحت عنوان: المطالبة بالاستقلال[١].

... نعم اعطيتمونا الاستقلال، ولكن الاستقلال الكاذب المزيف ما تغيرت ولا تبدلت، وانما تغيرت الألوان والأوضاع، والصور والاشكال والروح تلك الروح وبما يهبط عليها من الوحي والاشارة، يعمل الجميع لحسابكم؛ لأن الجميع من صنايعكم، وقل من يخفى عليه هذا الحال، أو يحسب أن هناك استقلالا أو أن في السويداء رجالا. هذا حال ما تسمونه بالاستقلال، ونسميه بالمعنى الصحيح استغلالا[٢] كان لهذه الصيحات المدوية أثرها الواضح على المستعمرين ومن سار في فلكهم من المحترفين كما انها نبهت الافكار الى التيارات الاستعمارية واهدافها. فقد كشف ألاعيب السياسة الاستعمارية الانكليزية في العراق وابان مقاصدها، بأمثلة حية من واقع العراق، وبتشبيهات اثرت في ابنائه. قال في مقالة تحت عنوان «حقيقة الاستعمار»:

ولو كان الاستعمار يؤخذ بمعناه الصحيح[٣] من الاعمار ورعاية مصالح البلاد واهلها لهان علينا، بل كنا نرحب به، أما اذا كان بالضد من ذلك فنحن نبرأ منه، ونكافحه بجميع قواته... والاستعمار كاللص يدخل الدار فيأخذ ما فيها.. وصاحب الدار ينظر وليس لديه قوة المدافعة واذا صاح أو صرخ يجني على حياته..

وليس من المبالغة في شيء اذا قلنا ان مقالاته السياسية صورت لنا واقع عصره وواقع حياته، ومكامن شخصيته، واضافة الى أنه أعطانا صورة فنية أصيلة لحال الانكليز ومراوغاتهم. ولعل سياسة مقاومة الشيوعية في العراق توضح ذلك اذ تعمد الانكليز محاربة الشيوعية في العراق، وهي خطة أحكمها ساسة الانكليز، ليبقى العراق في عزلة عن الشرق حفظا لمصالحهم هم. فلنستمع كل هذا على لسان كاتبنا مبينا جلية الأمر في مقال تحت عنوان محاورة السفير الانكليزي جاء فيه:

---

(١) محمد حسين كاشف الغطاء «محاورة الامام كاشف الغطاء» النجف عام ١٩٥٤.

(٢) محاورة الامام، طبعة النجف عام ١٩٥٤.

(٣) من معاني الاستعمار: الاعمار والاستيطان.

.. ان الشيوعية لا يجدى في قمعها ومقاومتها القوة والشنق والاعدام فضلا عن السجون والتبعيد والتعقيب الشديد بل هي كحشائش الارض والزرع كلما حصدته تنمو جذوره..

الشيوعية مبدأ ونظام وان كان مبدأ فاسدا ونظاماً معوجا فلا يقضي عليه الا المبدأ الصحيح والنظام الصالح..[١]

ومن الطرافة أن نذكر هنا أن الانكليز اختلقوا كل المبررات لاضطهاد الاحرار المخلصين ليخلو لهم جو العراق فطورا شيوعية وتارة نازية وفي كل هذا تركيز سلطانهم ونشر آرائهم الاستعمارية. وكانت هذه المقالات توقت بمواقيتها المعلومة فما ان ينتهوا من واحدة حتى يعمدوا الى المقالة الثانية: اسمع هذا على لسان الشيخ كاشف الغطاء مخاطبا السفير البريطاني في صراحة بقوله: أيها السفير... أتعلم أن في العراق دعاية نازية قوية... أتعلم من يقوم بنشر هذه الدعاية؟... هي منكم لا غير وانتم معشر الانكليز أقوى الدعاة الى هذا المبدأ.. سياستكم القاسية الرعناء وسوء تصرفكم حبب النازية الى الناس..»[٢] .

أما السياسية الأمريكية: فلها النصيب الأوفى في كتابات الشيخ، اذا فضح سياستها في التفرقة البغيضة في حدود قارتها وولايتها بين زنوجها وهنودها ومهاجريها حيث يقول في مقال له تحت عنوان: «اضطهاد الزنوج يفضح سياسة حكومة امريكا» جاء فيه: «لو كان عند الامريكان شيء من المثل العليا، والقيم الروحية لحموا الهنود الحمر السكان الاصليين للبلاد، والامريكان أجانب عنهم، نزلاء عليهم... لكن الهنود الحمر العزل المساكين لاقوا من الفاتحين المغامرين الوان العذاب والموت والتشريد والتقتيل». ولو كان عند حكومة امريكا ذرة من العدل والانصاف، لأحسنوا معاملة الزنوج الذين استعبدوهم... فالزنوج محرومون بالعمل وبالواقع من كل شيء، لغيرهم الغنم وعليهم الغرم، عليهم الواجبات الثقيلة، وليس لهم أبسط الحقوق»[٣] ومن خلال بسط آرائه هذه، يتخلص ببراعة متناهية ويلتفت مخاطبا العراقيين في هذا الأمر ليقارنوا بين نفاق امريكا في ادعائها الدفاع عن حرية الشعوب والسعي لتقدمها وسعادتها يقول: «... اذن أيروق لك أيها العربي الغيور ذلك الوضع التعيس والعيش الخسيس، وان ينتهي بك الأمر الى مثل ذلك الحال، فان الدولة التي تضطهد أبناء وطنها من الاولى أن لا تتورع عن اضطهاد أبناء الاقطار الأجنبية البعيدة، ويكشف اضطهاد الزنوج في

---

(١) المصدر السابق ص ٢١.

(٢) نفس المصدر ص ٧.

(٣) محمد حسين كاشف الغطاء، المثل العليا في الإسلام لا في يحمدون، ط٢ ص ١٩ النجف سنة ١٩٥٤.

أمريكا كذب مزاعم حكومة امريكا في الدفاع عن حرية الشعوب وفي السعي لتقدم الشعوب ورفاهيتها وسعادتها..»[١] والكاتب في كل ما كتب عن الاستعمار أجاد اجاة تامة، فكان يعقد المقارنات بين امريكا وانكلترا ليجد المفارقات والتناقضات لدى الاستماريين لئلا تنطلى حيلهم على احد. وقد ظهر هذا جليا فيما كتب عن فلسطين وما جرته سياسة امريكا وحليفتها انكلترا من ويل على العرب والمسلمين. فهي وثائق تدين الغرب الصليبيين المحدثين. قال مخاطبا السفير الانكليزي: «.. نحن معاشر العرب بل والمسلمين عموما، وان كانت قلوبنا دامية منكم وقد طعنتمونا الطعنة النجلاء في الصميم، وما اكثر طعناتكم لنا!!،... الطعنة طعنة فلسطين.[٢]

وبعد هذه المقدمة ينطلق مفصلا طباع الصهيونية عدوة الانسانية، منبهاً السفير الى عظم خطورتها ـ الصهيونية ـ على الفضيلة والاخلاق والأسر والعائلات فلنستمع الى كل هذا حيث يقول: .. «لقد ابتلينا نحن وانتم بالعدو المشترك العتيد، وليس هو عدونا وعدوكم فحسب بل عدو الإنسانية، عدو كل فضيلة، عدو الحرية الشخصية والاجتماعية... عدو كل فضيلة وكرامة، هذا العدو الألد الذي يريد القضاء عليكم اولا، وعلينا ثانيا بل يريد قلع جذور الفضائل والكرامات والأسر والعائلات.. فالواجب يدعونا بشدة ان نبحث عن السبب.. ولكل معلول علة، ولكل حادث سبب، واذا توصلنا الى معرفة السبب ربما يسهل علينا علاج هذا الداء واهتدينا الى أدواء هذا المرض الفتاك...» [٣].

هذا ما كان من أمر السفير الانكليزي. أما قصة السفير الأمريكي حول المأساة نفسها «فلسطين» فقد عبر الكاتب فيها عن التناقضات السياسية والتصريحات الرسمية للدولتين بالذات ليدلل لشعبيهما وللعالم أجمع سوء النيات المبيتة للعرب والاتفاق الكامل على معاداة العرب واقتطاع أرضهم المقدسة اذ مهد لحديثه هذا مع السفير بقوله: «ان الشريعة الاسلامية الجامعة لجميع الفضائل تأمرنا باكرام الضيف، وتحية الزائرين والترحيب بالغريب مهما كان دينه وعنصره، عدوا كان أم صديقا، ونحن تمسكا بهذه الآداب نحييك ونرحب بقدومك.. وان كانت قلوبنا دامية منكم معاشر الامريكيين لانكم طعنتمونا بالصميم طعنة لا يمكن السكوت عنها والصبر عليها...» [٤] وبعد هذا ينتقل سماحته بشرح قضية فلسطين ومساعدة الامريكيين

(١) المصدر السابق ص٢٠.

(٢) محاورة الامام ص ٤ ــ ٥.

(٣) محاورة الإمام ص ٤ ــ ٥.

(٤) المصدر السابق ص ١٦.

للصهيونية بكل امكاناتها وطاقاتها حيث يقول: ..«تعسا وبؤسا لهذه الرحمة ـ رحمة الصهيونيين تنصرون المظلوم بما هو أفظع ظلما واشد هضما، ترحمونهم بان تظلمونا وتسكنونهم في بيوتنا وتشردونا».[١] ثم يختتم حديثه بعبارات تقطر دما وألما مما جناه استعمارهم وحلفاؤهم من غدر للعرب فكانت الضحية أوطانهم «ان استعماركم الغاشم وحلفاءكم هو الذي أرعب الناس.. فالقلوب كلها ضدكم وتقطر دما من فظاعة ضربتكم التي قصمتم بها ظهر العرب..»[٢] ومن الحق ان قضية فلسطين استحوذت على افكار الشيخ وشغلت باله؛ لأنها مصير دين ومصير أمة بكاملها، فكانت ضربة أصابت الامة العربية فافقدتها وعيها وصوابها، كما انها اضعفت الامة الاسلامية كما يقول:

«... ما أصيب العرب والامة الاسلامية بضربة أعمت عينها، وقصمت ظهرها، ومزقت شغاف قلبها كضربة فلسطين ولا أوجع وافجع منها..»[٣].

هذا ما كان من أمر المستعمرين. أما أبناء العرب فقد وصفهم وصفا دقيقا بصور موحية، لما قاموا به من التجاء إلى هيأة الأمم المتحدة، وهي الشريكة في الجريمة بالذات، يشتكون اليها، محتجين غير خجلين من تكرار هذه اللهجة السخيفة: «... أما العرب فقابلوا كل هذه المظالم التي لا يصبر عليها حتى الحمار وفي المثل أصبر من الحمار يقابلونها بالاحتجاج الى هيأة الأمم ويشتكون اليها وهي التي أوعزت الى اليهود بذلك تريد اشغال العرب حتى اخذوا اللقمة الباردة وانتهزوا الفرصة النادرة.. اعتدى اليهود وقتلوا من العرب. ورفع العرب احتجاجهم الى هيأة الامن.. لا يخجلون من تكرار هذه اللهجة السخيفة بعد أن جربوا وعرفوا ان هيأة الأمم.. تضحك على ذقونهم وتسخر من ضعف عقولهم، وقرآنهم يقول: (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم).. لا أدري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم رشدا... وما يدرينا فلعل الله يحدث بعد ذلك أمرا ويجعل بعد العسر يسرا».[٤]

أما الحكومات العراقية المتعاقبة على دست الحكم فقد كان لقلمه فيها صولات وجولات وكان صلدا في كل ما كتب وحرر، والملاحظ على هذه المقالات انه اختار لها عنوانات صريحة لالف فيها ولا دوران فهو يسمي المسميات باسمائها ويعطي المعاني الفاظها.

---

(١) نفس المصدر ص ١٧.

(٢) نفس المصدر ص ١٨.

(٣) نفس المصدر ص ٢٨ ــ ٢٩.

(٤) المصدر السابق ص ٢٨ ــ ٢٩.

فقد أودع آراءه هذه مقالته المعنونة: «تذمر الشعب من سيرة الحكومة وسوء الادارة» جاء فيها:

«ليت شعري، ولا أدري، هل تجهل الحكومة العراقية حالة الشعب وتذمره الشديد، ... وسوء الوضع في جميع دوائرها... ان الشعب قد تورم وتألم بأجمعه من سوء أعمال المسؤلين.. فقضايا الشرطة ورشواتهم وسوء تصرفاتهم، ومقاسمتهم السرقات مع اللصوص والمجرمين، لم يحص هذا الوضع التعس قاموس بل ولا قواميس...»[١] وطبيعته هذه وثورته السياسية ليست بنت ظروفها ينفعل لها ثم يستكن، وانما من طبيعته الاساسيةة طبيعة كل عراقي هي انه لا يستكين لحاكم جائر ولا ينصاع لظالم، شعب يعشق الحرية ويقدسها، ولنا من تاريخ العراق البعيد والقريب خير دليل لذا نراه يهيب بالعراقيين للمطالبة بحق مهضوم وحرية مكبوتة قال: «.. قد تورم الشعب بأجمعه من سوء اعمال المسؤولين بجميع طبقاتهم من رأس الوزارة الى أدنى ادارة حتى صار كالجرح الذي يتقيح ويوشك ان ينفجر».[٢]

كانت أكثر مقالاته السياسية لسان الأمة الناطق وقلبها النابض، فتارة يسخر سخريته اللاذعة من الحكومة ووزرائها، وآونة أخرى بالالم والحسرة للمقادير التي جعلت من اولئك الساسة قادة لهذا الشعب في توجيه سياسته ومع كل هذا كان منصفا في احكامه يعطى المخلص حقه ويثمن السياسي الأمين مجهوده، ويوخز السياسي المحترف وخزات تكون محل تندرات المجالس ومجال ضحكها واستهزائها.

قال مخاطبا رئيس الوزارة السابق ياسين الهاشمي:

«... ليتك يا هاشمي تعود وترى الخمسة ملايين كيف صارت.. والضرائب كما هي ـ في الدولة العثمانية ـ أو زادت، والفقر والجوع أشد وأشد مما كانت على عهدك، ولأن سياسة التفقير، والتقتير في العراق كما هي لم تتغير ولم تتبدل»[٣] ثم يلتفت بعد هذا التفاتة منصفة بارعة في وصف وطنية الهاشمي واصالته العربية مخاطبا اياه:

---

(١) محمد حسين كاشف الغطاء، المثل العليا في الإسلام لا في بحمدون.

(٢) محاورة الامام ص ٢٣.

(٣) المصدر السابق ص ٢٧.

«... ليت في المسؤولين اليوم من يشعر بشعورك ويحمل وطنية مثل وطنيتك، وهذا جملة بل شعلة قد توقدت في الصدور كاد يحترق بها القرطاس والقلم، ولا نبالي بعد، ان كانت من قلب الواقع وصميم الحق وقلبه، ان يرضى بها القوم أو يغضبوا ولكن ما في الحق مغضبه...»[١]

ولعل هذه الفقرات المقتطفة من احدى خطبه، ما يجمل رأيه السياسي في الحكومة والشعب، آنذاك فالحكومة غير حكيمة، وشعوب ساقطة كالبهيمة حكومة تتذمر من شعب، وشعب يتذمر من حكومة فكيف تكون العاقبة..[٢]

رحم الله كاشف الغطاء فقد كان كاتبا سياسي لامعا، لم يتخلف عن معركة ولم ينفصل عن قضية.

أما مقالاته الاجتماعية:

فقد صورت أوضاع المجتمع العراقي بكل مساوئها وفي مختلف عهودها. فقد كان العراق مدة خضوعه للحكم العثماني «١٦٣٨ - ١٩١٧م» يعيش في شبه عزلة اجتماعية، كان الناس فيه، الا القليل منهم لا يعرفون عن الحضارة الحديثة واحداث العالم الخارجي الا النزر اليسير[٣] وكان المجتمع العراقي في حالة الانحطاط والتردي، يعمه الجهل وتسيطر عليه الخرافات فسادت هذا العصر الفوضى وعمه الاضطراب واختلت القيم والموازين.[٤]

عاصر الرجل بعضا من هذه الأحداث وعاصر احداثا تلتها لكنه كان ابن عصره وان طابع حياته لازمه في تفكيره وعمله، فلم يعش في عصره بعقل أهل زمانه ولا عقلية الزمن الماضي، وقد وجد في كل بيئة من بيئات العراق الشيء الكثير من التقليد اما من التجديد فلم يجد الا الشيء القليل النادر ومن استغلال الانسان لاخيه الانسان ما يندى له جبين الانسانية.

قال مصورا الفلاح وفقره، والكوخ وزاده: بجنب هذه الصورة المحزنة صورة الملك والابهة، ورياش الدمقس والحرير ولباس الاستبرق والديباج:

---

(١) نفس المصر.

(٢) المصد نفسه ص ٧٥.

(٣) راجع علي الوردي طبيعة المجتمع العراقي ص ٣٣٩ بغداد ١٩٦٥م.

(٤) منير بكر ــ الصحافة العراقية واتجاهاتها ــ بغداد ١٩٦٨ ص ٢٧.

«.. نحن لا يعنينا الملك وقصوره وانما يعنينا كوخ الفلاح، الفلاح الذي من كد يمينه وعرق جبينه وضرب مسحاته تشيد قصر الملك وقصر الكريمات[١] ايضا، الفلاح يسكن بيوتا كالقبور ومن جهوده وأتعابه تسكنون القصور، يأكل الرذان[٢] والدنان والشعير الاسود، وتأكلون العنبر، والدجاج وتلبسون الاستبرق والديباج، وينام على التراب وتتقلبون على الدمقس والحرير، هذا هو الذي في كل عام والى اليوم يغمر الماء زرعه وضرعه ويصبح فقيرا كما كان أو أشد فقرا»[٣].

الواقع أن الأساليب والعادات البالية التي ورثها العراقيون منذ أجيال بقيت تؤثر في المجتمع، وما ظنك بمجتمع يحتقر الفلاح والحائك، وزراع الخضر وصيادي السمك[٤] ويجلون الثري ويقدسون الاقطاعي.

قال كاشف الغطاء: «... المهلكات الثلاث: الجهل والفقر والمرض، كافحوا هذه الادواء وعالجوها..، عاملوا الناس بالصدق والرفق، واغرسوا جذور المحبة في قلوبهم بالاحسان اليهم والعطف عليهم تملكون مودتهم.. وتأمنون معرتهم، عالجوا سرطان الاقطاع الخبيث في جسم هذه الأمة.. قولوا لهؤلاء الاقطاعيين العشر، أو العشرين في العراق:

تشكو صناديقكم ضيقا بثروتكم والناس يشكون من جوع ومن ضيق
تود أموالكم لو مات خازنها حتى تحرر من اسر الصناديق»[٥]

لم يغادر الكاتب صغيرة ولا كبيرة في هذا المجتمع الا واشبعها درسا صاباً جام غضبه على مقترفيها: «قولوا لهم ـ الوزراء ـ يقطعوا دابرة الرشوة من الموظفين.. هذه الآفة التي نشرت كل رذيلة، ولم تبق لأكثرية الحكام أية فضيلة. ضاعت فيها الحقوق والمقاييس والاخلاق..[٦]» ومع هذا الوضع المزري صور الكاتب انعدام الاحساس والشعور نحو الجماعة؛ لان روح الجماعة، كما هو معروف ـ لا تكون في اي مجتمع الا حيث تكون ثقة الناس بعضهم بالبعض الآخر أولا، وثقة الناس بحكامهم ثانيا، والحديث عنها في مثل هذه الاوضاع حديث بلاهة، والحديث عن

---

(١) اسم أول قصر للملك فيصل بجانب الكرخ.
(٢) الحب الرديء الأسود.
(٣) محاورة الامام ص ١٣.
(٤) منير بكر «الصحافة العراقية واتجاهاتها» ٣٢.
(٥) محاورة الامام ص ٢١.
(٦) نفس المصدر ص ٢٢.

التضحية هي الاخرى حديث سخرية؛ لأن الحكم الفاسد قضى على روح الجماعة فانقلبت المثل وشاع بين الموظفين حب المال وبأية طريقة وبأية وسيلة فأثر هذا في سلوكهم فتهالكوا على الرشاوى ومواخير الفجور« فكان لكل وظيفة سعر خاص وسماسرة معينة في المحطات والمستشفيات.. قولوا لهم يطهروا الجهاز الحكومي من هذه البلية ومن الشرذمة الفاسدة وذوي الاغراض الكاسدة، وليطهروا البلاد من مواخير الخمور والفجور، ويبسطوا العدل والمساواة بين جميع الطبقات»[١] وفي ختام مقالته هذه ينصح الحكومة بالعمل الجاد في تقدم الصناعة وتسهيل معدات الزراعة وتشغيل الأيدي العاملة:

« ويجتهدون في نشر الصناعة وتسهيل معدات الزراعة وتشغيل الأيدي العاطلة» [٢] .

وقد أكثر من المقالات الاجتماعية، وأجاد كل الاجادة في ابراز العلل من استغلال وجشع وما اليها:

«... أما الاختلاسات والخيانات وفتح باب الرشوات على مصراعيه في الري والاشغال والآثار والاعاشة وغيرها فهو أمر مكشوف لاستار عليه ولا أغطية وصار حديث المقاهي والأندية».[٣]

موقفه من المرأة:

أما مواقفه الاصلاحية من المرأة ومشاركتها الرجل فقد تحرر من اسار الجامدين ونعى عليهم حرمانهم المجتمع من عقول فعالة قد تفوق الرجل كفاءة وقابلية ومقدرة عقلية وفنّد أباطيلهم اذ كانوا يرونها أشبه بسلعة تباع وتشترى في سوق الزواج، كما انهم نعتوها بأبشع النعوت والاوصاف وكانوا يخجلون حتى من ذكر اسمها، واعتبروها عبئاً ثقيلا يجب التخلص منه. لذا وقف الشيخ تجاه هذا الجمود بصلابة ودعا القوم الى التجديد ومسايرة الأحداث طلبا للتقدم ومشاركة الرجل في الدفاع عن الأوطان وسعيا وراء الاستقلال.

«... نقول للحرائر والنجيبات.. اننا نطلب منهن. الشجاعة الادبية، نطلب منهن الثورة على الظلم والظالمين، وتتابع الصرخات على المستعمرين، ومحاسبة المسؤولين».[٤]

---

(١) المصدر السابق.

(٢) نفس المصدر.

(٣) المثل العليا ص ٢١.

(٤) محاورة الامام ص ٧٥.

وفوق كل هذا ذهب الى أبعد حدود التقدم فدعا النساء الى تأليف الجمعيات النسوية، متأثرا بما بشر به الدين الحنيف فهو يريد: «ان يؤلفن الجمعيات ويتعاقدن ويتحالفن على نصرة المظلوم ومعاونة الضعيف. واعظم والزم ما عليهن انتشال المرأة من أوضار الفحشاء واضرار البغاء هذه الأمور هي الجذور الاصلاحية التي يجدر أن تقوم بها الجمعيات النسوية».[١]

ثم يحمل حملة شعواء على ما ألف الناس من عادات داعيا الى اقتلاع جذورها، مستنهضا الرجال والنساء على مقاومتها لئلا يصاب المجتمع بالداء ويصعب الدواء.

و «اذا لم ينهض لها الأكفاء من الرجال ويساعدوا النساء في مقاومتها وابادتها فالعاقبة وخيمة..؛ لأن من أسمى الأعمال الأسياسية السعي الحثيث الى الاصلاح، اصلاح من الرجال والنساء لهذه الناشئة».[٢]

وقد تجاوز هذا في كتاباته اذا طالب، بحقوقها السياسية المهضومة، لأنها حق طبيعي من حقوقها: «.. فمن الحقوق السياسية للرجال والنساء وعليهم جميعا ان يقفوا موقف المحاسب والمراقب من الحاكمين، وموقف الناقم الثائر والمحارب الواتر من المستعمرين».[٣]

هذه هي خلاصة آرائه الاجتماعية وافكاره الاصلاحية النابعة من عقيدته الاسلامية ونهجه القويم، قوامها اخلاق الفرد واخلاق المجموع ليصلح حال المجتمع، ولن يتم هذا، كما يرى، الا بالعلم فهو أهم عامل في اصلاح الناس، ومن اسباب القوة، ومن أسباب المعرفة التي تبصر الانسان بأهم أدوات النجاح. لقد أدى الشيخ كاشف الغطاء رسالته الاصلاحية فكان صداها عاملا حافزا في اصلاح الحال وبذلك أدى امانة وقدم رسالة لوطن رعاه صغيرا واحتضنه كبيرا.

خصائصه اللفظية:

وإذا القينا نظرة على عدد من مقالاته وكتبه وجدناها تتسم بفصاحة اللفظ وغزارة المفردات، وصحة التراكيب وسلامتها. وقد يميل الى ما يدل به على تفنن وصناعة بان يزاوج بين الجمل او يسجع أحيانا، ولكنه لا يبالغ في ذلك؛ لأن هذفه اهم من الصناعة اللفظية، ولأنه يهدف الى ايضاح المعنى وتبيين المراد، ويقصد الى التعليم وافادة المخاطب... والمخاطبون جمهور واسع، ولا ينفع الجمهور الواسع الكلام المتكلف المعقد. لذا سادت كتاباته السلاسة في

---

(١) المصدر السابق.

(٢) محاورة الامام ص ٧٥.

(٣) المصدر نفسه.

العبارة وعذوبة الحديث، ووضوح الفكرة لكي تؤدي المقالة غرضها فخاطب العامي كما خاطب المثقف بألفاظ سهلة واسلوب أخاذ؛ لأنه أراد توعية الجماهير، وتوجيهها نحو هدف تطمح اليه وغرض ترنو الى تحقيقه، هذا الى أنه يطرق الموضوعات التي عرفها تمام المعرفة، ومحصها كل التمحيص واقتنع بها واصبحت جزءاً من عقله وعقيدته. وهذه الموضوعات تكاد تكون فكرة من الفكر يقتنصها من الحوادث اليومية فيتأثر لها ثم يعبر عنها ليقدمها لقرائه مزودة بالادلة والحجج والبراهين، متصلة اتصالا وثيقا بحياة المجتمع من أمور دينية وسياسية واجتماعية، لتوجيه الرأي العام وايقاظه فكان: قوي الحجة.. واسع الاطلاع.. فصيح القول يستحضر الأمثال العربية والكلمات المأثورة والحديث النبوي الشريف يستحضر الوقائع التي مرت على الشعب العراقي فيبرزها للقارئ كأنها وقعت حديثا.[١]

وقد يفسر هذا ما نرى احيانا في كلماته ومقالاته من حماسة وحرارة وعاطفة، وتزداد نسبة هذه الحماسة عندما يمس الامر شأناً من شؤن الاسلام أو العرب أو العراق، أو كان الشخص المقابل سياسياً أو مجادلاً ومعاندا وهو كثيرا ما يزين كلامه بآيات من القرآن الكريم أو احاديث الرسول «صلى الله عليه وآله وسلم» وبحكم وعظات من كلام الائمة والعلماء المجتهدين وبحوادث من التاريخ الاسلامي، وأبيات حكمية من الشعر العربي. ويمكن أن تكون من امثلة مقالاته تلك، كلمة «المولد النبوي» وكلمة «مولد النبي الكريم» المحفوظتان في كتابه جنة المأوى وتعتبران أنموذجا كاملا للتعرف على اسلوبه المشرق اذ امتلأ بعناصر الادب الرفيع ونصاعة البيان واللباقة المدهشة.

والمتصفح لكتاباته ومؤلفاته يجده ـ رحمه الله ـ يجمع بين الادب والسياسة والاجتماع، وهي صفات يندر أن نجدها في رجال الدين، فصرنا نسمع على لسانه نغمات الحرية، والوطنية والشعب والاستقلال، الوزراء واعمالهم، سياستهم ومراوغاتهم وأضافة الى النواحي الاجتماعية الاخرى التي تزخر بها كتبه من تحرير المرأة ومشاركتها الرجل، وفقر وعرض كل ذلك بعنوانات تلتهب شجاعة وحماسة، وموضوعات مقتنصة من مناسبات مختلفة ليتخذ منها عنوانا للتعبير عن رأي أو مناقشة ظاهرة من مظاهر المجتمع الكثيرة. يقول علي الخاقاني صاحب مجلة البيان النجفية: «بأن له ـ كاشف الغطاء ـ شخصية فذة يصعب على الزمن أن يأتي بمثلها فقد جمعت كثيرا من النواحي التي عز ان تجمع في فقيه أوفي زعيم ديني».[٢]

---

(١) علي الخاقاني، شعراء الغري ج٨ ص ١١٣.

(٢) شعراء الغري ج٨ ص ١١٥.

وخلاصة القول: أن كاتبنا منح قدرة المصلح، وموهبة الاديب، فاستطاع ان يتحرى الحقائق، ويستقصي الادلة والشواهد، وان يلتزم بالحيدة والانصاف في كل كلمة خطها، والبعد عن التحيز والهوى في كل رأي جاهر به ودعا له، اضافة الى ما يسبغه على تلك الموضوعات والآراء من الوحدة الموضوعية والصياغة الفنية فاستحق أن يكون بحق فقيها متحررا وكاتبا مجيداً وصحفيا لامعاً؛ تشهد له بذلك مؤلفاته التي بلغت التسعين والمترجمة الى عدة لغات وخطبه الكثيرة ومقالاته المتناثرة في الصحف والمجلات، التي خلبت الالباب وحيرت العقول، ونالت الاقبال.(١)

وفي الختام نجمل خصائصه اللفظية والاسلوبية بما يلي: قوة الاسلوب وجزالة التعبير، ومتانة اللغة، النزعة الخطابية، والاسلوب المنطقي في الاحتجاج، وطغيان الاتجاه الفلسفي في التفكير والتعبير، والاستدلالية في التمثيل.

(١) للاطلاع على مؤلفاته المطبوعة، والمخطوطة، يراجع محاورة الامام، وشعراء الغري ج٨، وجنة المأوى.